التعريف والنقد

حكاية البيت الشامي الكبير

للدكتور كاظم الداغستاني

٢٠٦ صفحات من القطع المتوسط ـ مطبعة ألف باء ـ الأديب
دمشق ـ الطبعة الأولى ١٩٧٢

بقلم الأستاذ شفيق جبري

أذكر أني لمّا أشرت في هذه المجلة إلى كتاب الدكتور كاظم الداغستاني « عاشها كلها » قلت في جملة ماقلت : لقد وصف نواحي كثيرة من حياة المجتمع في دمشق ، لقد أثبت أنه من دمشق ...

ولقد جاء في كتابه الجديد : « حكاية البيت الشامي الكبير » ، ببرهان آخر على شدّة صلته بمدينته دمشق وعلى حبه لها وأيّ دليل على مثل هذا الحب أنطق من إحياء الماضي الذي تقلّبت فيه دمشق في سنيها غير البعيدة ، وأعني بهذا الماضي جملة من تقاليدها وعاداتها وأوضاعها التي أوشك بعضها أن يذهب أثره . لقد رسم المؤلف في كتابه الطريف صوراً شامية قديمة ، يشعر بطرافتها الرجل الذي شهد هذه الصور في حياته ، ولاسيّما صورة المرأة ، لأن المرأة في رأي المؤلف عماد الأسرة ومرآة البيت ، ولا أبالغ إذا قلت : إن المؤلف توّخى في تصويره الدقّة والصدق والأمانة والإخلاص على قدر ماساعد عليه الإمكان وبلغ إليه الجهد

يشتمل الكتاب على خمسة عشر فصلاً ، وإذا كان من الظلم أن ألخّص هذه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الفصول فأضيع بهذا التلخيص رونقها ، فمن الإنصاف أن أشير إلى بعضها حتى يشعر القارىء بحلاوة الموضوع الذي عالجه المؤلف . فمن التقاليد مثلاً أن الرجل كان لايحقّ له أن يرى خطيبته إلاّ يوم الزفاف ، ومن هذه التقاليد أن الوجهاء والأغنياء وأرباب البيوت القـــديمة كانوا يزهدون في تزويج بناتهم حتى لا تنتقل ثروتهم إلى الأصهار .

إلاّ أن هذا كله ليس بجوهر الكتاب ، فلابدّ القارىء من أن يتمهل في في قراءة مايتصل بعرض الجهاز ، أي جهاز العروس ، في بعض مدينة دمشق ، ولقد شهدنا هذا العرض من سنين بعيدة حتى بطلت هذه العادة يومنا هذا ، فقد تجلت قدرة المؤلف على وصف الدقائق في هذا العرض كما تجلّت قدرته في التنبيه على التقاليد المتبعة في التفويق بين الرجـال والنساء في عرض الجهاز وفي وصف ملابس الرجال والنساء ووصف محتويات الجهاز المعروض ، فكأن القارىء يشهد العرض بنفسه ويرى المحتويات بعينه . لقـد أحيا المؤلف مدينة دمشق ببراعته ، أحيا تقاليدها وعاداتها وأوضاعها حتى أصبحت صورها ناطقة بحيث إذا وقعت عليها عين القارىء ظنّ أنه يعيش في أيامها .

ولم يغفل المؤلف في هذا كله عن ذكر طائفة من ألفاظ كانت شائعة على الألسن في ذلك العصر ، ولاسيّما الألفاظ المعبّرة عن الملابس والمآكل وغيرها مثل ألفاظ البقجة والصارمة والشال والبابوج والقبقاب الشبراوي والآلاجا والكمر وغيرها مما يطول ذكره .

لم يقتصر الدكتور كاظم الداغستاني في كتابه على تصوير ماتقدمت الإشارة إليه ، ولكنه تخطى هذا كله فصور بعض أوضاع الحكم في تلك السنين المظلمة وأشار إلى المصادرات التي كانت تهدم فيها الدور للتفتيش عن مخابىء الذهب والفضة والجواهر والتحف ، وقد جرّه وصف هذا الحكم الى تخصيص فصول

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بحذافيرها المكلام على والي الشام وأمير الحج أسعد باشا ، وعلى عزة باشا المشهور في أيام السلطان عبد الحميد فكأنه دخل على البيوت الكبيرة وشهد فيها الملابس والمآكل كما شهد الدسائس بين النساء .

وفي كلامه على عزة باشا لم يجد مندوحة عن الكلام على حيّ الميدان العظيم الذي ولد فيه عزة باشا وعلى منزلة هذا الحي في القديم ومن كان يعلم هذه المنزلة من سنين ويرى ماصار إليه هذا الحي ملأت الكآبة قلبه .

والخلاصة إذا كان ابن دمشق يطرب إلى ذكرهر يزيد في كتاب الدكتور كاظم الداغستاني وذكر جبل قاسيون والصالحية والميدان أو إذا كان يطرب إلى رؤية صور البيوت القديمة وما كانت تحتويه من بحرة في صحن الدار ، واسم هذا الصحن في اللغة العامة : الديار ، أو من إيوان واسمه : الليوان ، أو من مخادع وقاعات وغيرها ، فانه يأسف على فقدان هذه الصور الدمشقية في عمراننا الحديث .

لم أقل كل ما ينبغي لي أن أقوله في ذكر الطرائف التي تضمنها كتاب حكاية البيت الشامي الكبير وحسبي في هذه الخاتمة أن أشير إلى طرافة هذا هذا الموضوع وإلى خفة الظل في معالجته التي تظهر في خلالها خفة ظل الأسلوب المشتمل على أشياء كثيرة من المحاسن .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net